

ج ٤ : م ١ ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٣

حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقّق السيد محمد الخضر

في الحفلة التى أقامتها جمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية

مساء الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣

— ١ —

تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات افريقيه الشمالية حتى يسيروا مع اخوانهم المصريين جنباً لجنب : يسايرونهم في أفكارهم ، في آدابهم ، في معارفهم ، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الراقية . وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين . وكذلك يجب على كل جالية تعيش في بيئة هي أوسع من أوطانها حرّيةً واحتمالا للمشروعات الاصلاحية

وللدعوة الى المنافسة في الخير ، والمسابقة في حلبة الشرف والسعادة ، طرق شتى ؛ ومن أقربها مأخذاً ، وأبلغها أثراً ، إلقاء محاضرات تتمثل فيها سيَر رجال أدركوا بصفاء ألمعيتهم وكبر هممهم مكانة راسخة ، وسمعة فائقة . وقد بدا لنا

صفحة من تاريخ الاباضية

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان عند الاباضية ، وقسمان عظيمان من أقسام الاسلام وجبا على كل شخص متى نيطت به عُهدة التكليف ، يستوي فى هذا الواجب الذكور والاناث كلٌّ فى جنسه ؛ لما ورد فى الكتاب العزيز من الآيات الموجبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمادحة لهما — كقوله سبحانه « ولتَكُنْ منكم أُمَّةٌ . . . » الآية وقوله « والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياء بعض . . . » ، وآياتِ الوعيد على تركهما كقوله تعالى حكايةً عن بنى اسرائيل « كانوا لا يتناهَوْن عن مُنكَر فعلوه . . . » الآية — ولما ورد فى السُّنَّة الصحيحة كقوله عليه الصلاة والسلام « لتامرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليسلطنَّ اللهُ عليكم شِرارَكم فيدعو خيارُكم فلا يُستجابُ لهم » وأمثال ذلك

ولم تزل للاباضية هذه السيرة ، وفيهم هيئات دينية تقوم بهذا الواجب شبيهة بجماعة الأئمة العادلين تحرس الشعب من تطرُّق البدع اليه ، وربما أفردنا لها مقالاً بعدُ . وان العلماء يقومون بهذا الفرض فعلاً ، والعامة لساناً ؛ فاذا زاغ الامام أو تركَ القيام بالحدود الشرعية وجب على جماعة المسلمين الأمر بالمعروف والنهي على المنكر بالقوة إن استطاعوها . لهذا كان الاباضية يقومون فى وجوه أئمة الجور ، والدليل الصحيح لهذا قوله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ[1] » وهذا الحديث معدود من أصول الاسلام وقاعدة من قواعد الدين

ولما اشتد الاضطراب في البصرة إذ تولى حكمها رجال عتاةٌ لا يرقبون واجباً ، فازداد الامر ارتباكاً ، ووضعوا السيف فى الرقاب ؛ كانت القلاقل متوالية

(١) ورد في (المسند الصحيح) للربيع بن حبيب الفراهيدى البصرى

بدون انقطاع ، فوقف زياد يوماً على المنبر يخطب فقال في خطبته :

« لآخذن المحسن بالمسيء ، والحاضر بالغائب ، والصحيح بالسقيم . . . »

فقام اليه أبو بلال مرداس بن حدير ـ أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ـ وكان بالمسجد فقال :

ـ ما هكذا ذكر الله اذ يقول « وإبراهيمَ الذي وفَّى ، ألاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرَى ، وأنْ ليس للانسان إلاَّ ما سعى ، وأنَّ سعيَه سوف يُرى ، ثم يُجزاهُ الجزاءَ الاوفَى »

ثم ألحَّ زياد في طلب الذين نقموا عليه أعماله ، فصار يقتل بالظنة ؛ ويخصّ من شاء بالفيء ، فأجمع أبو بلال هو وأصحابه أمرهم على الخروج ، فقال لاصحابه :

ـ ان الاقامة على الرضى بالجور لذنب ، وإنَّ تجريد السيف واخافة الناس لَعظيم ؛ ولكن نسير في أرض الله ولا نجرِّد سيفاً ؛ واذا أرادنا قومٌ بظلم امتنعنا منهم

فقالوا له : ـ أنت رئيس المسلمين وبقيتهم

فخرج فى ثلاثين من أصحابه ، فلقيه على جسر البصرة عبد الله بن رباح عامل عبيدالله بن زياد ـ وكان صديقاً لأبى بلال ، وكان فاضلا ـ فراودهم على الرجوع ، فأبوا . فأتوا الاهواز فأصابوا أموالا تحمل لابن زياد ، فأخذوا أعطيتهم منها وتركوا الباقي

ولما بلغ الأمر عبيدَ الله بن زياد وجه اليهم جيشاً فى ألفين عليه أسلم بن زرعة ، فاقتفى الجيش أثر أبي بلال وجماعته . ومرَّ ناس على أصحاب أبي بلال فسلموا عليهم فردوا عليهم التحية ، فقال لهم أصحاب أبى بلال :

ـ أمن هذا الجيش الذي يريد قتالنا ؟

قالوا : — لا

فقال أبو بلال : سلمكم الله ، ابلغوا من لقيتم أنا لم نخرج لنفسد فى الارض ، ولا نقاتل إلا من اكرهنا على قتاله ، ولا نأخذ من الفيء إلا اعطيتنا

وبلغهم أسلم بن زرعة وهم في آسك من نواحي الاهواز بين أرجان ورامهرمز ، وكانوا فى أربعين رجلاً فقالوا لأسلم بن زرعة :

— اتق الله ، فانا لانريد قتالا ، فما تريد ؟

قال : — أردكم الى ابن زياد

قالوا له : — يقتلنا ، فتشاركه فى دمائنا ؟

قال : — نعم ، دماؤكم حلال ، وهو محقّ

قالوا : — اللهم ان كان كاذباً فانصرنا عليه

فاقتتلوا ، فانتصر أبو بلال وأصحابه . فقال فى ذلك عيسى بن فاتك الخطّي — أحد بنى تيم الله بن ثعلبة — فى كلمة له :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا   الى الجُرد العتاق مسوّمينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم   فظلّ ذوو الجعائل يُقتلونا
بقيةَ يومهم حتى أتاهم   سوادُ الليل فيه يُراوغونا
يقول بصيرُهم لما أتاهم   بأن القوم ولّوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم   ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم   ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك   على الفئة الكثيرة ينصرونا

وغضب عبيد الله بن زياد على أسلم ، فقال أسلم :

— لأن يذمني ابن زياد وأنا حي ، أحب الي من أن يمدحني وأنا ميت

ثم أرسل اليهم ابنُ زياد عبّادَ بن أخضر فى أربعة آلاف مع من انضم اليهم ،
فلما التقوا بأبي بلال قال لعبّاد :

ـ ما تريد ؟

قال له : ـ أردّكم الى ابن زياد

قال : ـ أتدعونا الى طاعة من يسفك الدماء ، ويأخذ المال الحرام ، ويعطل الحدود ، ويرتشي فى الحكم ، ويتسلط بالجبروت ، ويقتل بالظنة ، ويأخذ على التهمة ، لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ؟

قال : ـ نعرف ما تقولون ، ولكن لهم مع ذلك الطاعة

وقيل انه قال : ـ كذبتم ، هو خير منكم ، وأنتم أولى بالضلال منه

وقدم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج ، فقال :

ـ ما هذا ؟

قيل له : ـ الشُراة

فحمل عليهم . وانتشبت الحرب فى يوم جمعة وأبو بلال يتلو « من كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له فى حرثه . . » الآية . فأُسر القعقاع ، فقال لابى بلال :

ـ لست من اعدائك ، وانما خُدعتُ ولم أعلم

فأطلقه . ورجع يقاتله ، فحمل عليه رجلان من أصحاب أبى بلال يقال لهما حُريث وكهمس ، فأسراه وقتلاه . وكان وقت صلاة الجمعة ، فنادى أبو بلال :

ـ إنا فى يوم عظيم ، فدعونا حتى نصلي وتصلوا

فأجابوهم . فلما دخل في الصلاة هو وأصحابه كرّوا عليهم فقتلوهم بين راكع وساجد عن آخرهم

وأبو بلال ممن اشتهر بالورع والعلم والشجاعة ، وله وقائع اخرى

***

وذكر عبيدُ الله بن زياد البلجاء الحزاميّة(1) من بني حزام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وكانت مشهورة بالعلم والورع والزهد والنسك . فلقي غيلانُ بن خرشة الضبي أبا بلال فأخبره بأن الامير يذكر البلجاء . فمضى أبو بلال اليها فقال لها :

— ان الله جعل لاهل الاسلام سَعَةً في التقية ، فان هـذا الجبار المسرف ذَكَرَكِ

قالت : — أكرهُ ان يصل الى أحد مكروهٌ بسببي ، فان أخذني فهو أشقى له

وأخذها فقال لها : إنك حرورية محلوقة الرأس

فقالت : ما أنا كذلك

قال : لأُرينّكم منها عجبا ، اكشفوا رأسها

فمنعتهم . فقال لأكشفنّ احسن بضعة منك

فقالت : لقد سترته حيث لم تستره أمك

قال : إيه ، ما تشهدين عليّ ؟

قالت : شهد الله عليك ثلاث شهادات بقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون — و — الظالمون — و — الفاسقون » وشهدتَ على نفسك أن أولاك لزنية وآخرك لدعوى

فعضّ على لحيته ، فقتلوها . فخرج أبو بلال فى جنازتها فقال :

— لو أعلم أنى أُبعث على ما تبعث عليه لعلمت أنى ابعث سويًا على صراط مستقيم

وروى أنه قطع يديها ورجليها وطرحها فى السوق فمرّ بها أبو بلال فقال :

(1) ويروى البنجاء

ـ لهذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك ، مامن ميتة أموتها أحبّ الىّ من ميتة البلجاء

وكان ابو بلال وأصحابه اذا اشتدت بهم الحاجة باعوا حلى سيوفهم ، ولا يأخذون شيئاً الا عطاءهم

* * *

وقام فى أوائل القرن الثانى (١٢٩ هـ) طالب الحق عبد الله بن يحيى بن عمر بن الاسود بن عبد الله بن الحارث بن معاوية بن الحارث الكندى ، وكان قاضياً لابراهيم بن جبلة عامل القويسم على حضرموت وهو عامل مروان بن محمد ، وأظهر القويسم الجور باليمن وحضرموت فنزع الناس الى عبد الله بن يحيى . فكتب الى أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ـ الامام اذ ذاك بالبصرة بعد أبى الشعثاء وأنبغ من أخذ عنه ـ يستشيره فى الامر ويسترشده . فأجابه :

ـ ان استطعت فلا تبق يوماً واحداً

وأرسل اليه جماعة من الأبطال يعتمدهم فى أموره ومهماته ، ويتولون جيوشه . منهم أبو حمزة المختار بن عوف بن سليمان بن مالك بن فهر الازدي أحد بنى سلمة [1] ، فكتب اليه يصف أبا حمزة « انا بعثنا لك برجل قرآنه فى صدره » يعنى علمه بالقرآن . ومنهم بلج بن عقبة الازدى أحد بنى مسعود وكتب اليه « انا بعثنا لك اثنى عشر رجلاً وألفاً » يعنى بالالف بلج بن عقبة وكان من الابطال المعدودين

ولما وصل هؤلاء الى عبد الله بن يحيى استولى على صنعاء ، وخلص له اليمن ، فقسم ماوجد من الاموال على فقراء صنعاء ، ولم يتبع مدبراً ولا أجهز على جريح ولا استحل شيئاً من الاموال وفر القويسم عامل مروان

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد : أحد بنى سليمة بن مالك

وفى موسم الحج وجّه عبدُ الله بن يحيى الى مكةَ أبا حمزة المختار بن عوف وبلج بن عقبة وابرهة بن على فى جيش لأداء فريضة الحج وتأمين السبل وإنقاذ الحرمين من الجور . فمشت السفراء بين أبى حمزة وعبد الواحد والي بنى أمية بأن يلتزم الفريقان السلام الى أن يتم للناس حجهم ، فبقى أبو حمزة محايداً ، وكان بلج بن عقبة يأتى الجمار مصحوباً بقوة من الخيل خوف الغدر به . فلما تم الحج وقضى الناس مناسكهم فرّ عبد الواحد ليلا الى المدينة . فاستولى أبو حمزة علي مكةَ ، وخطب على منبرها ، وأقام فيها ما شاء الله

ثم قصد ابو حمزة المدينة فاستولى عليها ، وخطب خطبة وعتها القلوب لم تزل من متخيَّر القول ومن منتقيات الترسُّل عند أهل الادب . وكان من الذين حضروها وحفظوها مالك بن أنس اليحصبي عالم المدينة

وخرج أبو حمزة يريد الشام ، فثار عليه أهل المدينة ، وكان قد وصلت جيوش الأمويين وعليها عبد الملك بن عطية فالتقى الفريقان . فقال أبو حمزة :

ـ ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، فالىمَ تدعوننا انتم ؟

قالوا : — ندعوكم الى طاعة مروان

فاقتتلوا ، وكانت الواقعة بقديد ـ بين مكة والمدينه ـ انتصر فيها الامويون بعد أن خسروا من جيشهم نحو أربعة آلاف . فرجع أبو حمزة الى مكةَ وهم فى أثره حتى أدركوه ، فوقع بينه وبينهم (يوم مكةَ) وفيه قتل أبو حمزة وقتل معه أبو الحرّ على بن الحصين العنبرى وكان من خيار علماء المسلمين وفقهائهم بمكة ومن الاغنياء الاجواد المنفقين فى وجوه البرّ

ثم سار عبد الملك بن عطية الى اليمن فتغلب على عبد الله بن يحيى الكندي فقتله . وسار الى حضرموت فقاتله أهلها ، فتحصن منهم في قرية هناك ، فحاصروه أربعة وعشرين يوما ، حتى أعياه الامر فطلب منهم الصلح فصالحوه علي أن يردّ

جميع ما فى عسكره من الاموال التى أخذها ، فسلبها لهم فأخذوا ما عرفوا . ثم أرسل اليه مروان أن يلتحق بالحج ليصلي بالناس ، فخرج فى نفر من أصحابه مبادراً الى الحج وجيشه خلفه ، فوافق رجلين من الاباضية أخوين يعرفان بابنى جمانة ، فظناه منهزماً ، فدخلا هما وأصحابهما عليه قرية بات فيها ، فقتلوه هو وأصحابه

وهنا انتهت سلطة الاباضية ـ أبى حمزة وطالب الحق ومن معهم ـ بالحرمين واليمن ، وانحصرت فى عُمان

ابو اسحاق : ابراهيم اطفيش

يا بلادي

أقيمت لخليل بك مطران حفلة تكريم فى (بستان الانشراح) بتفرحيفا وهو عائد الى مصر ، فألقى فى تلك الحفلة قصيدة منها هذه الابيات :

يا بلادى اليكِ يهفو فؤادي كلَّ آنٍ شوقاً ويلتاعُ وجدا
كلما اشتدتِ الصروفُ بأهليـــكِ نما ذلكَ الهوى واشتدّا
كيف لا توهب الحياة فدى شَعْـــبٍ كهذا الشعب العزيز المفدّى
وطني الباكي الحزين الذي نشـــرب فيه أسىً ونشرَق سُهدا
ان تُجزّأ من وحدة لم يكن حدُّكِ في القلب غيرَ ما كان حدّا
كيف يبني ذاكَ المفرِّق حساً فى بني الأمّ بين روحين سدّا
من ذُرى كرملٍ الى حلبٍ الـــفينت قرباً ما كان يُحسب بعدا
وطني لو ببعدنا عنك يوماً بيع خلد النعيم لم نشرِ خلدا

خليل مطران